المحاضرة الثانية عشر: الأجناس الأدبية من منظور باختين: علاقاتها بالمجتمعات التي أنتجتها

مقدمة :

يُعدّ ميخائيل باختين (Mikhail Bakhtin) من أهم المفكرين والنقاد الروس في القرن العشرين، وقد أسهمت أعماله في إحداث ثورة فكرية في فهم الأدب واللغة والثقافة. لم يكن باختين منظّرًا للأدب فحسب، بل فيلسوفًا للغة والحوار الإنساني. وقد قدّم تصوّرًا متميزًا لمفهوم النوع الأدبي(Genre) ، جعله يختلف عن التصنيفات الشكلية الكلاسيكية التي نجدها عند أرسطو أو عند النقاد البنيويين مثل ياكبسون وتودوروف.

يرى باختين أن الأدب لا يمكن فصله عن اللغة الحية والسياق الاجتماعي الذي ينتجه، لأن الخطاب الأدبي في نظره ليس بنية مغلقة، بل حوار مفتوح مع العالم، ومع خطابات الآخرين.

ثانياً: باختين ولغته الفلسفية — اللغة كحوار

.1مفهوم "الحوارية(Dialogism) "

يعدّ مفهوم الحوارية حجر الزاوية في فكر باختين، فكل خطاب، في رأيه، لا يوجد في عزلة، بل يتفاعل مع خطابات أخرى سابقة ولاحقة، بمعنى أن اللغة ليست أداة للتعبير الفردي فقط، بل هي ميدان للصراع والتفاعل بين الأصوات. إذن، كل نص هو نتيجة تفاعل بين أصوات متعددة:

- صوت الكاتب،
- صوت الشخصيات،
- صوت الثقافة والمجتمع،
- صوت القارئ.

وهذا ما يسميه باختين بـ "تعدد الأصوات.(Polyphony) "

ثالثاً: مفهوم الأجناس الأدبية عند باختين

.1اللغة ليست واحدة بل متعددة الأشكال

يرى باختين أن اللغة تتجلى في المجتمع من خلال أنواع من الخطابات، أي صيغ لغوية محددة تظهر في مواقف تواصلية متكررة، على سبيل المثال: رسالة، خطبة، مقال، حوار، مذكرات، رواية... إلخ. فكل شكل من هذه الأشكال هو نوع أدبي لأنه يمثل طريقة مخصوصة في استخدام اللغة.

.2--التمييز بين نوعين من الأجناس

قسّم باختين الأجناس إلى نوعين أساسيين:

النوع	الخصائص	الأمثلة
الأجناس الخطابية الأولية (البسيطة)	تظهر في الحياة اليومية، قصيرة، مباشرة، تعتمد على التواصل اليومي	التحية، الحوار، الرسالة، النكتة
الأجناس الخطابية الثانوية (المركّبة)	تظهر في التواصل الثقافي المعقّد، وتُبنى على الأجناس الأولية	الرواية، المسرحية، الشعر، الفلسفة، التاريخ

رابعاً: الرواية بوصفها الجنس الأدبي الأعلى

.1مركزية الرواية في فكر باختين

يعدّ باختين الرواية أعقد وأغنى الأجناس الأدبية لأنها تمثل أعلى درجات تطور اللغة الأدبية، فهي — بخلاف الملاحم القديمة — لا تتحدث بصوت واحد، بل تحتوي على تعدد أصوات ووجهات نظر. ولهذا سمّاها باختين "الخطاب المتعدد الأصوات" أو "الخطاب الحواري."

.2خصائص الرواية عند باختين

الخاصية	التوضيح
تعدد الأصوات (Polyphony)	وجود أصوات متعددة متكافئة داخل النص، دون أن يهيمن صوت المؤلف.
الحوارية (Dialogism)	تفاعل هذه الأصوات في جدل مستمر، مما يجعل النص فضاءً حيويًا للخطاب.
الزمن المفتوح	الرواية لا تنتمي إلى زمن مغلق أو أسطوري، بل تتفاعل مع الحاضر والمتغير.
اللغة المزدوجة	تحتوي على مستويات لغوية مختلفة (العامية، الفصحى، لغة السلطة، لغة الشعب).

خامساً: مقارنة بين الأجناس الأدبية وفق باختين

الجنس الأدبي	طبيعة اللغة	الصوت المسيطر	الزمن	العلاقة بالواقع
الملحمة	لغة رسمية،	أحادية الصوت صوت المؤلف أو البطل الواحد	زمن ماضٍ مغلق	تمجيد الماضي والأسطورة
الدراما	لغة حوارية بين الشخصيات	أصوات متقابلة ولكن تحت سلطة المؤلف	زمن حاضر	تمثيل الفعل الإنساني في لحظة توتر
الشعر	الغنائي لغة ذاتية،	صوت فردي صوت "الأنا" الشاعرة	لحظة حالية مكثفة	تعبير ذاتي، لا اجتماعي
الرواية	لغة متعددة،	حوارية أصوات متكافئة ومتصارعة	زمن مفتوح ومتعدد	واقع متغير، منفتح على التاريخ

إذن، يرى باختين أن الرواية تتفوق على الأنواع الأخرى لأنها تستوعب جميع الأشكال الأخرى داخلها، وتعبّر عن تعدد الحياة لا عن وحدتها.

سادساً: المفاهيم الأساسية المرتبطة بالنوع الأدبي عند باختين

.1تعدد اللغات(Heteroglossia)

يشير إلى تنوّع اللغات داخل المجتمع الواحد (لغة المثقف، الفلاح، السياسي، الشاعر...)، والرواية هي الفن الوحيد القادر على تمثيل هذا التنوع داخل نسيجها.

.2الكرنفالية(Carnivalization)

استعار باختين مفهوم "الكرنفال" من الثقافة الشعبية، ليرى أن الرواية — بخلاف الملاحم — تسمح بتبادل الأدوار، والسخرية من السلطة، وانقلاب القيم، تمامًا كما يحدث في الكرنفال الشعبي.

.3الزمن الكرونوتوبي(Chronotope)

وهو تلاحم الزمان والمكان في النص الأدبي، فكل نوع أدبي يتميز بنمط خاص من تفاعل الزمن والمكان:

- في الملحمة: زمن أسطوري مغلق.
- في الدراما: زمن مكثّف في الحاضر.
- في الرواية: زمن واقعي متغير، ومكان متنوّع يعكس تعدد الحياة.

سابعاً: تطور النوع الأدبي

يرى باختين أن الأنواع الأدبية ليست قوالب ثابتة، بل كائنات حية تتطور عبر التاريخ، فهي تنشأ، وتزدهر، وتتغير بتغير الظروف الاجتماعية واللغوية، وهذا ما يجعل الرواية النوع الأكثر حداثة لأنها مرنة وقادرة على التكيّف مع تحولات المجتمع.

ثامناً: القيمة النقدية لتصور باختين

.1جعل اللغة أساس الأدب، لا الشكل أو الوزن.

.2فتح النص الأدبي على العالم الاجتماعي والسياسي.

.3رفض فكرة الصوت الواحد في النص، مؤكداً على التعدد والانفتاح.

.4أعاد الاعتبار للثقافة الشعبية، واللغة اليومية، والحوار مع الآخر.

.5قدّم نموذجاً دينامياً لتطور الأجناس الأدبية.

الخاتمة

من خلال منظور باختين، يتضح أن النوع الأدبي ليس مجرد شكل فني، بل هو نظام لغوي اجتماعي يعكس علاقة الإنسان بالعالم، فالأجناس الأدبية — وخاصة الرواية — تتطور لأنها تتغذى من الحوار مع الواقع والآخرين، ولهذا، فإن الأدب عند باختين ليس خطابًا مغلقًا، بل فضاء للحوار، والاختلاف، وتعدد المعاني.

يمكننا أن نلخص رؤية باختين في العبارة التالية" :حيث يوجد المعنى، يوجد الحوار، وحيث يوجد الحوار، تولد الأجناس الأدبية.